

## عبد الناصر وجيفارا

الحلم... والثورة .. [ من كتاب عبد الناصر والعالم ]

### محمد حسنين هيكل

عندما دخل فيدل كاسترو على رأس رجاله الظافرين هافانا، وقد امتشقوا بنادقهم وأحزمة رصاصهم مطلقين لحاهم الكثيفة مال الرئيس عبد الناصر إلى اعتبارهم. جماعة من المغامرين على الطريقة السينمائية التي كان يقوم بأدوارها إيرول فلين وأمثاله من أبطال أفلام المغامرات المثيرة ، ولينس ثوارا حقيقيين وربما ساعد على هذا الانطباع أن الممثل إيرول فلين نفسه كان مع الموكب الغريب الذي دخل كاسترو به إلى هافانا.

ولم يول- عبد الناصر حركة كاسترو الكثير من الاهتمام لأن الزعيم الكوبي كان يلقي كثيرا من التأييد الأمريكي في ذلك الحين . ومع أن عبد الناصر كان يرى أن أمريكا اللاتينية كانت ناضجة للثورة، فلم يكن يعتقد أنه يمكن أن ينجح أى تغيير هناك دون موافقة أمريكا . فقد كان شديد الإحساس واليقظة للطريقة التى قلبت بها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية نظام الرئيس أربينيز فى جواتيمالا، وكان إحساسه هذا من العمق بحيث لم يكن يساوره أى شك فى حقيقة بطش الولايات المتحدة وسلطانها على تلك المنطقة.

وقد كان شكه فى تأييد أمريكا لحركة كاسترو، وارتياحه فى نزعة كاسترو المسرحية- فضلا عن انهماكاه فى أحداث الشرق الأوسط- هو الذى دفع عبد الناصر إلى العزوف عن التورط مع كاسترو وأتباعه أصحاب الذقون الطويلة والأحذية الثقيلة.

ولم يكن هناك أى اتصال حقيقى بين الحركتين حتى يونيو ( حزيران ) ١٩٥٩ عندما وصل تشى جيفارا إلى القاهرة فى زيارة لمدة خمسة عشر يوما لدراسة تجربة الإصلاح الزراعى فى مصر . وكانت هذه هى أول مرة يلتقى فيها عبد الناصر وتشى جيفارا.

فى هذا اللقاء الأول، روى تشى لعبد الناصر إنه عندما كان كاسترو يجابه المصاعب والنكسات- وهو يقود حرب العصابات فى قمم التلال الكوبية فى سنة ١٩٥٦ -- كان يستمد كثيرا من الشجاعة من الطريقة التى صمدت بها مصر للعدوان الثلاثى البريطانى- الفرنسى- الإسرائيلى . وقال إن عبد الناصر كان مصدر قوة روحية وأدبية لرجالها.

على أنه عندما بدأ الرجلان يتطرقان إلى موضوع الإصلاح الزراعى، بدا الاختلاف بينهما واضحا على الفور . إذ كان أول سؤال وجهه تشى جيفارا هو:  
" كم من اللاجئين المصريين أجبروا على مغادرة البلاد؟ "

وعندما رد عليه عبد الناصر بأن عددهم لم يكن كبيراً وأنهم كانوا في معظمهم من " المصريين البيض " أى من فئة أصحاب الجنسيات الأجنبية الذين تمصروا بحكم إقامتهم في مصر، لم يسعد هذا الجواب جيفارا، فقال معلقاً:

" هذا يعنى أنه لم يحدث شيء كثير فى ثورتكم . إننى أقيس عمق التحول الاجتماعى بعدد الأشخاص الذين يمسه ويؤثر فيهم بحيث يبدأون فى الإحساس بأنهم لم يعد لهم مكان فى المجتمع الجديد. "

وهنا شرح له عبد الناصر أن ما يفعله هو، تصفية امتيازات طبقة معينة وليس تصفية أفراد تلك الطبقة". وأضاف أنه يريد أن يفتت سلطة الإقطاعيين لكنه لا يريد أن يحرم أفراد هذه الطبقة الإقطاعية من أن يصبحوا أعضاء نافعين فى المجتمع الجديد إذا شاءوا .

ولكن جيفارا أصر على وجهة نظره ولم تتمخض زيارته للقاهرة عن شئ يذكر. فقد كان الرئيس عبد الناصر حتى ذلك الوقت لا يولى الكوبيين وسياساتهم الكثير من الاهتمام .

-----

وفى السنة التالية استقبل عبد الناصر ضيفاً كوبياً آخر هو راعول كاسترو- شقيق فيدل- الذى جاء على رأس وفد كوبي للاشتراك فى احتفالات ذكرى الثورة . وقد أعد خطاباً لهذه المناسبة يلقيه فى الاسكندرية بمناسبة ذكرى خلع الملك فاروق عن العرش . وكان الخطاب بالغ العنف فى هجومه على الولايات المتحدة، ذلك أن العلاقات بين كوبا الجديدة كانت قد ساءت وأخذت الولايات المتحدة تهيبء مقدمات الغزو فى معركة خليج الخنازير التى وقعت فيما بعد.

واستفسر أحد رجال التشریفات من كاسترو عما سيقوله فى خطابه ولما أطلعه كاسترو على الخطاب هاله ما فيه من عنف فى العداة لأمریکا فرجاه أن يخفف شيئاً من لهجته.

وانفرد كاسترو بنفسه فى المدرج وحاول أن يحذف أعنف مقاطع الخطاب وشعر باكتئاب شديد من ذلك. لكنه ازداد انزعاجاً عندما قال له رئيس التشریفات إن النصف المنقح لا يزال بالغ العنف ! وفى النهاية حذف راعول كاسترو ما يقرب من ثلثى الخطاب وشعر برغبة فى الامتناع تماماً عن الكلام فى الاحتفال غير أنه كان وعد بالكلام واتخذت كل الترتيبات لذلك فأحس بأنه لابد وأن يمضى فى الأمر إلى نهايته. ولكنه شعر بالخيبة و بأن خطابه كان فاتراً بلا نبض ولا روح ولا حيوية .

ثم ألقى الرئيس عبد الناصر خطبة حمل فيها على الولايات المتحدة حملة أكثر عنفاً بكثير مما كان كاسترو ينويه فى النص الأول لخطابه. من هنا فقد أسقط فى يد الزائر الكوبي وكان من الطبيعى أن يشعر بالحيرة والغضب معا !

وعندما خرج عبد الناصر وكاسترو فى سيارة واحدة من مدرج الاحتفال لتناول العشاء، لزم كاسترو الصمت طوال الطريق برغم حماسة الجماهير الى كانت تهتف لهما وتحببهما. وعندما وصلا إلى بيت الرئيس قال كاسترو : " إننى أسف فربما ليس لى أن أثير الموضوع أصلاً . لكننى لا أفهم شيئاً على الإطلاق إليك خطابى...

كان الخطاب مكتوبا بالأسبانية، ولاحظ الرئيس فوراً أن نصفه مشطوب. واستأنف كاسترو قائلاً: " إن ما يحيرني هو أنك كنت في حملتك على الأمريكيين أقسى وأشد مما كنت أنويه عشرات المرات... "

ودهش الرئيس وسأل كاسترو عن قام بدور الرقيب على خطابه، وبدأ يتحرى فوراً عن الأمر بالتليفون، حتى اهتدى إلى المسئول الذي راقب خطاب كاسترو، وقد قال ذلك الرجل- سيء الحظ- إنه شعر بأن عليه أن يسأل كاسترو تخفيف لهجة خطابه لأنه كان مقررراً أن يحضر السفير الأمريكي الاحتفال !..

وهنا التفت عبد الناصر إلى كاسترو قائلاً : " هكذا يعاني الثوريون من البيروقراطيين " .

ورد كاسترو قائلاً إنه لو لم يهاجم الرئيس الأمريكيين في خطابه ولو لم يسأل عن سبب مراقبة خطابه لكان قد عاد ليخبر أخاه أن المصريين ليسوا ثوريين .

-----

التقى عبد الناصر بفيدل كاسترو للمرة الأولى في نيويورك بعد ذلك بثلاثة أشهر عندما حضر الإثنان " دورة خروشوف " في الأمم المتحدة . وفي ذلك اللقاء كرر فيدل كاسترو ما كان قاله جيفارا عن الشجاعة التي استمدوها في ١٩٥٦ من الطريقة التي صمدت بها مصر في وجه بريطانيا وفرنسا وإسرائيل في معركة السويس . وكيف خرجت ورأسها مرفوعة في عنان السماء . وطلب من الرئيس عبد الناصر أن يلخص له التجربة المصرية وقت السويس وأبدى إعجاباً صادقاً به.

وقد أعطى الرئيس عبد الناصر تأييده لكاسترو في نيويورك حيث دبر الأمريكيون حملة ضده تستهدف إجباره على مغادرة الولايات المتحدة. وكان قد حجز لنفسه ولأعضاء وفده في فندق شلبورن حيث تعمدت إدارة الفندق إهانته إذ طلبت من الكوبيين تقديم بعض الضمانات المالية ثم امتلأت الصحف الأمريكية بالقصص الفاضحة التي تزعم أن غرف المندوبين الكوبيين امتلأت بريش الدواجن التي زعموا أن هؤلاء كانوا يذبحونها في غرفهم ويلتهمونها !

وانتقل كاسترو إلى الإقامة في هارلم- حى الزنوج- وذهب عبد الناصر لزيارته في ذلك الحى الزنجي المعزول لإبلاغه رغبته في أن يقترح نقل الأمم المتحدة إلى بلد آخر إذا جعل الأمريكيون من المستحيل على كاسترو أن يشترك في دورة الجمعية العمومية تلك

وحمل كاسترو لعبد الناصر هدية كانت عبارة عن صندوق خشبي موشى بجلد التمساح. وعندما فتحه عبد الناصر قال : " ظننت أنه صندوق سيجار "، فاعتذر كاسترو قائلاً : " لم أكن أعرف أنك تدخل السيجار، لكنني سأتحقق من أن تصلك كمية من السيجار، ولربما أخطأت في إهدائك صندوقاً موشى بجلد التمساح لأن النيل عندكم يعج بالتمساح " .

أجابه عبد الناصر: " نعم... عندنا " وتطلع إلى سقف الغرفة قبل أن يضيف " أربعة منها بالضبط!"

وتطلع إليه كاسترو مشدوها : " كيف تيسر لك أن تحصيها "؟ فأجابه الرئيس لأنها جميعا في حديقة الحيوان " !

وسأله كاسترو إذا كان سيستمع إلى خطابه الرئيسي الذي ينوي أن يلقيه في جلسة بعد الظهر في الأمم المتحدة، فرد عبد الناصر بأنه على قدر ما كان يود ذلك ، فلن يكون في وسعه أن يحضره لأن مواعده مع الرئيس أيزنهاور كان قد حدد في نفس الموعد المقرر الذي كان كاسترو يتحدث فيه.

واكتأب كاسترو للغاية واعتقد بأن الأمريكيين تعمدوا تحديد الموعد بهذه الطريقة حتى يعرقلوا أى تقارب بينه وبين عبد الناصر. ولكن حتى إذا كان ذلك صحيحا فالواقع أن الأمريكيين لم ينجحوا في غرضهم إذ قام بين الرجلين إعجاب متبادل تزايد على مر الأيام .

وحدث الرئيس عبد الناصر كاسترو- في اجتماعاتهما في نيويورك- على أمرين :

أولهما : أن لا يعلق اهتماما أكثر مما يجب على القاعدة البحرية الأمريكية في " جوانتانامو " في كوبا، وأن لا يسمح لنفسه بأن يساق إلى نزاع عسكري بسبب تلك القاعدة .  
وثانيهما: أهمية وجود قاعدة للثورة . كالوحدة العربية مثلا بالنسبة للثورة المصرية.

وأوضح الرئيس لكاسترو كيف أن فكرة الوحدة العربية قد أعطت النضال المصرى عمقا عظيما وأمدت الثورة بالعمق الاستراتيجى والادبي والسياسي .

وسأل كاسترو إذا كانت ثمة قاعدة أو أسس للوحدة فى أمريكا اللاتينية.

ورد كاسترو بأن هناك بعض الأسس : الدين، واللغة - باستثناء البرازيل بلغتها البرتغالية- والاضطهاد الذى يؤلف القاسم المشترك الأعظم بين جميع دول أمريكا اللاتينية. ولكن لم يقدّم أى عامل توحيدى فى قوة فكرة الوحدة العربية.

-----

عاد جيفارا إلى القاهرة فى فبراير (شباط) ١٩٦٥ ومكث فى المنطقة العربية حتى نهاية مارس (آذار). وفى ذلك الحين كان عبد الناصر قد نبذ تماما شكوكه الأولية فى الكوبيين وأخذ يعجب بهم لاندفاعهم فى تأييد مصر وقت السويس وفى صراعهم من أجل الحفاظ على ثورتهم .

وكان عبد الناصر يرى فى كفاحهم ضد الولايات المتحدة فى معركة خليج الخنازير وأزمة الصواريخ الروسية، صراع سمك السردين مع الحوت . وكان اعجابه كله لسمك السردين .

استقبل عبد الناصر جيفارا فى اليوم الثانى من زيارته وشعر على الفور بأن جيفارا يعاني الحزن من ضيق شخصى وكرب عميق . وحاول عبد الناصر أن يحثه على الكلام : كيف تفسر الأحوال فى كوبا ؟ هل كل شيء على ما يرام بينه وبين كاسترو؟ "

لكن جيفارا ظل منطويا على نفسه ، ولم يفتح قلبه أو " يفضفض " بالكلام عن مشكلته.

وفى ذلك الاجتماع أبلغ عبد الناصر أنه ذاهب إلى تانزانيا حيث ألفت لجنة لمساعدة حركات التحرير الأفريقية فى دار السلام، ولكن عبد الناصر شعر بأن جيفارا لا يتجه إلى تانزانيا بكل قلبه...

وعاد جيفارا بعد عشرة أيام قضى بعضها فى الكونجو وقال للرئيس : إن ماشاهده هناك أحزته وحز فى قلبه. وقال إنه قام بزيارة كتيبتين من الزوج الكوبيين ألفتا وأرسلتا من كوبا للقتال من أجل أنطوان جيزنجا الرجل الذى حاول أن يرث زعامة لومومبا . ومضى يبلغ الرئيس " إنه يفكر فى الانضمام إلى الكفاح وفى تولى قيادة الكتيبتين .

ودهش عبد الناصر مما سمع... بينما استطرد جيفارا- الذى كان يرافقه فى المقابلة السفير الكوبي فى تانزانيا السنيور ريفالتا الزعيم السابق لنقابة عمال السيجار فى كوبا- يقول : " لقد أمضيت ليلتى كلها أذرع أرض غرفتى فى فندق شبرد محاولا أن أقرر إذا كان يجب أن أقابلك وأخبرك بذلك بينما أمضى صديقي ريفالتا وقته يلف سيجارين لك "

وكان ريفالتا يحمل دائما أوراق التبغ الكوبي معه ليلف السيجار حيثما أتيح له. وهكذا لف فى ليلة تردد جيفارا سيجارين بالغى الطول للرئيس بينما كان جيفارا يحاول أن يقرر ما إذا كان له أن يبنىء الرئيس عبد الناصر بأنه ينوى أن يقاتل فى الكونجو .

وما لبث جيفارا أن بدأ يتكلم ليوضح موقفه للرئيس :  
إننى أرى أنه يجب أن نفعل المزيد من أجل الثورة فى العالم . وقد فكرت فى أنه يتعين على أن أتوجه إلى أفريقيا لأفعل شيئا ما. إن لى خبرتي وتجربتي فى النشاطات الثورية وفى التنظيم الثورى وأعتقد أن الأسباب مهياة فى أفريقيا.  
" وأعتقد أننى سأتوجه إلى الكونجو لأنها أكثر بقاع العالم تفجرا ، وأخال أننا نستطيع- بمساعدة الأفريقيين عبر لجنة تانزانيا وبواسطة الكتيبتين الكوبيتين- أن نوذى الاستعمارين فى قلب مصالهم فى كاتانجا " .

ورد عليه عبد الناصر قائلا : " إنك تدهشني ماذا حدث لكل ما كنت تفعله فى كوبا ؟ هل تخصصت مع كاسترو؟ لا أريد أن أتدخل لكنك إذا كنت تريد أن تصبح " طرزان " ثانيا ، رجلا أبيض يقحم نفسه بين الزوج ليقودهم ويحميهم ، فإن ذلك لن يفلح .

وضحك جيفارا من فكرة تحوله إلى " طرزان " . وانتهى الاجتماع الذى كان فى الوقت نفسه بداية سلسلة من الحديث والحوار بين عبد الناصر وجيفارا . حوار بين مناضلين ثوريين كان رأيهما واجتهادهما فى طريقة تحقيق الثورة تختلف بشكل جوهري فى معظم الأحيان .

-----

كان عبد الناصر يحب جيفارا. وكان يشعر بميل عاطفى خاص نحو هذا الزعيم الكوبي ، وفى أثناء الحديث، بدأت تتجلى أسباب حزن جيفارا. فقد قال ببسط الوضع ، إنه يكن احتراما شديدا لكاسترو

ويعتبره أبا ومعلما، ولكن قامت بينهما أشياء لم تكن كلها سوية . أولها أنه جعل راعول كاسترو يعتنق الشيوعية بينما كان في المكسيك ولم يخبر فيدل بذلك . ثم أدخل راعول في عضوية الحزب الشيوعي وقرر معه أن يخفيا الأمر على فيدل. ولما عرف فيدل كاسترو بالأمر استشاط غضبا : غضب لما حدث كما غضب لأنه أخفى عنه.

كذلك عكر العلاقات بينهما أنه كانت له أحيانا- برغم أنه لا يشك مطلقا في الإخلاص الثوري لكاسترو- بعض التحفظات إزاء معتقدات كاسترو الاجتماعية أثناء كفاحهما المسلح في الجبال .

وعلى كل حال، فقد كان غضب كاسترو وشكوك جيفارا قد مضيا ، ومنح كاسترو رفيقه فرصته في أن يزاول حقه الثوري كاملا، فقد أعطاه- وهو الأرجنتيني- الجنسية الكوبية وجعله وزيرا للصناعة .

ولكن مصاعب ذلك المنصب كانت هائلة ووجد جيفارا أن الكثيرين أخذوا يهاجمونه بسبب افتقاره إلى النجاح بشكل جعله يشعر بأنه يفتح المجال لمهاجمة فيدل كاسترو شخصيا.

وقال جيفارا إنه يشعر بأنه يتخبط في أزمة . فقد كانت لديه أسئلة عديدة لا يستطيع أن يجد لها جوابا. وقال إن كوبا تواجه مشكلات هائلة. وليست هناك حلول سريعة. واعترف قائلا : " لقد تخبطنا- وربما كنت أنا المسئول عن هذه الأخطاء- فقد أممنا ٩٨ في المائة من كل ما وجدناه ، أممنا حتى دكاكين الحلاقة، وبعد ذلك وجدنا أنه كان علينا أن نترك بعض الناس خارج نطاق التأميم " .

ومضى جيفارا يقول :

لقد تعودت أن أتحدث كثيرا عن التحول الاجتماعي . ومن ثم كلفت مهمة الإشراف على ذلك التحول ، وكان المشكل الأول الذي واجهته هو إيجاد الأشخاص الذين يمكنهم أن يديروا المؤسسات المؤممة ثم وجدناهم وظننا أنهم سيكونون ممثلين للثورة، فاكشفنا أنهم لا ينتمون إلى الحزب الثوري إنما إلى الحزب الإداري .

فقد نسوا حماسهم الثوري في أحضان السكرتيرات الفاتنات وعلى مقاعد سياراتهم الفخمة وفي أجواء امتيازاتهم ومكاتبهم وبيوتهم المكيفة الهواء ، وأخذوا يغلقون أبواب مكاتبهم في وجوه الناس للحفاظ على الهواء المكيف بدلا من أن يفتحوها لاستقبال العمال .

لقد شعرت بأننا نعطي الانتهازية فرصتها. وقد وجدنا رجلا يحتفظ في مكتبه بسبعة عشر جهاز تلفزيون .

أحسست بأنه ليس لدينا حزب، إنني شيوعي وقد قرأت القدر الكثير من الكتب الشيوعية وأصبحت معذبا مشتتا بين الثورة والدولة. "

وكان جيفارا يتكلم بملء اندفاعه. كانت خيبة أمله واضحة وضوح حزنه وكربه وكان صدره مليئا بأسئلة تفنقروا إلى جواب .

" من هو الشيوعي؟ ما هو دور الحزب؟ هل الشيوعي مجرد ملحد؟ هل يتعين على الشيوعي أن يعمل أكثر من الآخرين؟ لقد قلت ذات يوم إن على الشيوعي أن يكون آخر من يأكل وآخر من ينام وأول من يستيقظ . لكنني تبينت أن ما قلت هو وصف لعامل جيد وليس وصفا لشيوعي جيد.

من يسن القوانين؟ ما هي العلاقة بين الحزب والدولة؟ وبين الثورة الناس؟ حتى يومنا هذا ظلت هذه العلاقات تدار بانتقال الأفكار واستقرائها تلقائيا . لكن هذه الطريقة لم تعد كافية.

إننا شديدو التعاسة من كثير من الأشياء الى نراها حولنا ، إننا لسنا راضين عن الستالينية لكننا لا نقبل رد الفعل ضد الستالينية...

ثم إن هناك تناقضا في الشيوعية. فعندما كنت أفاوض الاتحاد السوفييتي أحيانا، وجدت أن الروس يريدون أن يشتروا موادنا الخام بسعر السوق السائد الذي يحدده الاستعماريون . على أنني لا أستطيع أن أقبل ذلك من دولة اشتراكية. ولقد ناقشت هذه الناحية مع الروس .. فقالوا إنهم مضطرون إلى أن يبيعوا في سوق تنافسية. وعند ذلك سألمهم عن الفرق بينهم وبين الاستعماريين الذين يحددون الأسعار، فقالوا إنهم يفهمون جيدا وجهة نظري وأنها يدركون أن المواد الخام تجمع من عذاب واحتضار شعوب الدول المتخلفة ولكن ليس لديهم- على حد قولهم- من بديل . " إننا مضطرون إلى البيع في سوق تنافسية "

وبعد ذلك سألمهم عن السلع والمنتجات الجاهزة التي يبيعونها لنا وقلت لهم : إنكم تعتمدون في الإنتاج على آلات التسميد الذاتي وبالتالي لا تدفعون أجورا مرتفعة في مقابل الإنتاج، أى أنكم تنتجون تلك السلع بتكلفة رخيصة ومع ذلك تبيعون إياها بنفس أسعار السوق العالمية أى أننا نواجه الانسحاق في كل حالة ، ولا نجد أملا لنا حتى معكم ! "

ومضى بعد ذلك يناقش دور كوبا في أمريكا اللاتينية وقال إن الحركة الوحيدة التي قامت قبل الثورة الكوبية وكانت تستحق الاهتمام هي حركة بيرون في الأرجنتين وقال إن بيرون حقق بعض الأشياء المهمة في ميدان التصنيع لكنه أخفق كليا في فهم دور البروليتاريا وقد أخفقت حركته وفشلت بسبب افتقارها إلى عنصر النضال الشعبى .

واستطرد يقول : " وقد أخفقت كذلك لأن بيرون كان جباناً فلم يستطع أن يستجمع ما يكفي من الشجاعة لمواجهة الموت وعندما حان وقت إظهار الشجاعة أثر الهرب " .

وقال جيفارا: " إن نقطة التحول في حياة كل إنسان تحل في اللحظة التي يقرر فيها أن يواجه الموت . فإذا قرر أن يجابه الموت يكون بطلا سواء نجح أم أخفق . إن في وسع الإنسان أن يكون سياسيا صالحا أو ردينا ولكن إذا كان لا يستطيع أن يواجه الموت فإنه لن يكون أكثر من مجرد رجل سياسي "

تلك كانت العقيدة التي عاشها جيفارا ومات من أجلها.

-----

واستمرت المناقشات ليلال عدة في بيت الرئيس وكان من الأشياء التي رواها جيفارا للرئيس عبد الناصر أنهم كانوا قرروا البدء بالثورة في كوبا مع أن الأسباب لم تكن ملائمة لها، لأنهم شعروا بأن قرار إشعال الثورة نفسه يشكل عاملا ثوريا يجب أن يحسب حسابه.

وناقشه عبد الناصر في حجه تلك قائلا إنه يدرك أن قرار إشعال الثورة يمكن أن يكون في حد ذاته عاملا حتى لو كانت الشروط الموضوعية غير مكتملة بعد ، ولكن هناك متطلبات أساسية لا يمكن تجاهلها فإذا ما أهملت فإن القيام بالثورة يمكن أن يكون عملا يائسا .

وقال عبد الناصر لجيفارا:

" عليك- قبل كل شيء- أن تنسى كليا فكرة الذهاب إلى الكونجو هذه . انها لن تنجح وسوف يكتشف أمرك بسهولة لأنك رجل أبيض . وإذا رافقتك آخرون من البيض فإنك ستعطى الاستعماريين فرصة أن يقولوا إنه ليس هناك فارق بينكم وبين الجنود المرتزقة .  
إننى أعتقد بأن الثورة ظاهرة عالمية النطاق لا تفرق بين مختلف الألوان والأجناس ولكن هناك أشياء معينة يجب أن تدخل فى الاعتبار، أن ما ينبغي علينا عمله هو أن نساعد الإفريقيين . ولنحاول فى هذا أن نعطي كل شعب الحق في أن يفعل ما يعتبره صائبا .  
لكنك إذا ذهبت إلى الكونجو مع الكتيبتين الكوبيتين وإذا أرسلت معك فيلقا مصرية فإن عملنا سيوصم بأنه تدخل أجنبي وسيؤذى أكثر مما يفيد " .

ومضى عبد الناصر يناقش مسألة القواعد اللازمة للثورة الناجحة ، قال : ربما كنت أختلف مع وجهة النظر الماركسية الجامدة التى تقول إن الثورة لا يمكن أن تنشب الا حيث تكون هناك بروليتاريا متطورة- ولقد أثبت كل من لينين وماوتسى تونج عدم صحة هذه النظرية- لكننى أرى أنه لا بد من أن تكون هناك على الأقل نواة من البورجوازية الصغيرة والعمال .  
كما أن الأمر يتطلب توافر المقومات الأساسية لمرافق المواصلات . فالأفكار تحتاج إلى المواصلات مثلما يحتاج إليها الاقتصاد . وإذا كان الاقتصاد في حاجة إلى طرق ومطارات فإن الأفكار كذلك تحتاج إلى وسائل الانتقال وبالتالي لا يمكن أن تكون هناك ثورة جماهيرية عامة دون أن تتوفر المقومات الأساسية لمرافق الخدمات العامة .  
لقد عانيت ذلك فى اليمن واختبرته . فعندما بدأت الثورة هناك، وجدتني أهب لمساعدتها . ومع أننى تلقيت من التقارير ما يفيد أن الواقع هناك غير صالح للثورة فقد قلت مثلك إن مجرد أن الثورة قامت فإن ذلك يؤلف عنصرا وضعيا في حد ذاته وبالتالي تجب مساعدتها .  
على أننى ما لبثت أن اكتشفت أولا أنه لا يمكن مساعدة الثورة من الخارج ، وثانيا أن ذلك سيقضى وقتا طويلا وكثيرا من العذاب . ووجدت أننا بينما نستطيع أن نساعد فى العملية التاريخية للثورة فإننا لا نستطيع أن نفكر متخطين العملية الطبيعية العضوية التى تخلق قوى الثورة .

-----

في ذلك الحين كان الرئيس عبد الناصر يخوض حملة لتجديد فترة رئاسته للجمهورية العربية المتحدة ، فكان يجول فى المدن والأرياف ملقيا الخطب ومجمعا إلى الجماهير . وهكذا أبلغ جيفارا بعد جلسة مناقشة طويلة بينهما أنه لن يسعه أن يقابله فى اليوم التالى لأنه سيكون خارج القاهرة لافتتاح العمل فى أحد المصانع .

وحول هذا الاعتذار دفة الحديث من جديد إلى الصناعة فقال جيفارا إن بناء المصنع وإدارته يؤلفان عنبا عسيرا . وأعرب عن رأيه فى أن أكثر ناحية مجزية من الثورة تكمن فى النشاط السياسى وسط الجماهير ، وأن تصريف شئون المصانع هو عمل يبعث على الملل والقنوط .

ورد عبد الناصر بأن عملية الحماسة المطلقة تأتي في المرحلة الرومانسية من الثورة وأن يوم إندلاع الثورة هو يوم تحقيق أهداف الرومانسية - إنه ليلة الزفاف . ولكن عليك بعد الزفاف أن تجعل الزواج ناجحاً . عليك أن تكسب مالا وأن تبني بيتاً وتنجب أطفالاً . وهذا هو المقصود بالثورة . وهذا ما تعنيه الثورة. إنها تعنى معاناة العبد العسير الكامن في بناء المصانع واستصلاح الأراضي وتحويل الحماسة المطلقة إلى حماسة لخطة محددة وهدف بذاته.

قال جيفارا وهو يفتر عن ابتسامه : " لقد حطمت أنا زواجين ... "

وراح الرئيس عبد الناصر يشدد عليه مرة أخرى بشأن نظريته في استكمال أسباب نجاح الثورة فقال :

إننا إذا اكتفينا برومانسية الثورة دون أن تتوافر لدينا التطورات اللازمة لها. فإن ذلك سيكون كارثة ولن تكون هناك ثورة ما لم نقم بكل تلك المهمات المملة والتي تبعث على العجز كما تقول ."

واستطرد يخاطب جيفارا : " أعرف أنك كنت طبيباً... إذن فشأنك في ذلك شأن جراح مدد مريضاً على مائدة العمليات وبنجه وشق بطنه ثم رفض أن يمضى قدماً في إجراء العملية. لا يجوز بل ولا يمكن أن تفعل ذلك " .

ورد جيفارا وقد بدت عليه كل علامات الأسى وخيبة الأمل :  
" ولكن ليس الثوريون هم الذين يقومون بمهمة تصريف الأعمال بعد الثورة . إنما هم الفنيون والبيروقراطيون الذين هم ضد الثورة .

أتعرف أنني أعتقد بأن هناك قانوناً أساسياً وحيداً في الاشتراكية لم يكتشفه أحد بعد . لقد درست ماركس ولينين وتابعت جميع تجاربهما وأنا مقتنع بأن ما من أحد قد عثر بعد على ذلك القانون الأساسي . في برهة من الزمن ظنت أنه التخطيط لأن الإنسان استطاع للمرة الأولى من خلال التخطيط أن يصب مستقبله في قالب جديد وأن يعيد تشكيل ذلك المستقبل، لكنني ما لبثت أن وجدت أننا عندما نصل إلى التخطيط فإننا نجابه الفنيين والبيروقراطيين وهؤلاء يعملون ضد الثورة ويناهضونها " .

وهنا سأله الرئيس إذا كان يود أن يرافقه إلى افتتاح المصنع الجديد حيث سيكون في وسعهما أن يشاهدا بعض النتائج العملية للثورة المصرية. ورد جيفارا بالإيجاب وانطلقاً معاً في اليوم التالي .

-----

لقى عبد الناصر استقبالا عارماً فقد اندفعت قري بأسرها بقضها وقضيضها لتحية موكبه وحاول الناس إيقاف سيارته بإلقاء أنفسهم أمامها. وفي ذلك المصنع تجمعت الألوف المؤلفة تهتف لعبد الناصر.

ودب الانفعال الشديد في جيفارا فقال : هذا ما أريده . هذا هو الغليان الثوري " .

وقال عبد الناصر :

" حسنا... لكنك لا تستطيع أن تحصل على هذا... " وأشار إلى الجمهور " دون ذلك " ثم أشار إلى المصنع. وقال: " لن تستطيع إدراك النجاح ما لم تنشئ ذلك المصنع " .

استولى ذلك كله على لب جيفارا حتى أنه وقف في أحد الاجتماعات وقال بأعلى صوته مخاطبا الرئيس :  
" حبذا لو أستطيع أن أصوت لك " .

وقام الضيف الكوبي كذلك بزيارة للسد العالي وأعجب كل الإعجاب بما شاهده- شأنه في ذلك شأن كل من توجه إلى زيارة السد- وقد اتخذ الرئيس عبد الناصر من السد العالي مثلا يدعم به حجته حول الحاجة إلى بناء الثورة وقال في هذا الصدد: " لقد خضنا معركة من أجل السد العالي . كانت هناك رومانسية الثورة بأسرها والرومانسية الكاملة لمعركة كبرى ضد ثلاث دول . لقد تعرضت السويس للغزو بسبب السد العالي. ولكن كان علينا- بعد انتهاء القتال- أن نعكف على المهمة الحقيقية. وقد اعتاد دالاس أن يقول لنا إننا سنلعب اليوم، الذى فكرنا فيه فى بناء السد بسبب التضحيات التى سيفرضها على الشعب المصرى . ولكن هذه هى الثورة. إن هذه التضحيات هى الثورة . الثورة هى العمل يوما بعد يوم لحفر الأسس الصخرية وبناء الأنفاق وتركيب الآلات فهذا ما يغير المجتمع . إن قمة الفاعلية الثورية هى تجنيد الناس للقبول بالتضحيات اللازمة للبناء على الدوام .

و في المرة التالية التى التقيا فيها قال جيفارا لعبد الناصر :  
" لعننا نستطيع أن نجد سبيلا. ربما استطعنا تسييس البيروقراطيين و الفنيين . وقد تصبح الثورة في مأمن إذا استطعنا ذلك " .

وظل يعود طوال حواراه مع عبد الناصر إلى موضوعه الشخصى ... مشكلة توافر الأسئلة وانعدام الأجوبة والحلول . وظل عبد الناصر بدوره يحاول حمله على الإفصاح عن مشكلاته على أمل أن تنبثق- فى النقاش- بعض الإجابات والحلول .

و سأله عبد الناصر ذات يوم : " ماذا يشغلك؟ " فهز جيفارا رأسه وأجاب : " فى الحقيقة أشعر بأننى لست أهلا للقيام بما أقوم به وأنا أبحث عن مكان آخر أذهب إليه . لقد فكرت فى الذهاب إلى الكونجو لكننى بعد أن رأيت ما يجرى هناك وجددتى أميل إلى التسليم بوجهة نظرك بأن ذهابي إلى الكونجو قد يكون ضارا .

لقد فكرت فى الذهاب إلى فيتنام . فأنا أكثر إعجابا وتأثرا بما يجرى هناك منى بما يجرى فى أى مكان آخر. ذلك أنه إنجاز خارق أن يكون هؤلاء الناس قد استطاعوا أن يحاربوا اليابانيين والفرنسيين والأمريكيين بشكل متواصل. إن ما فعلوه بالأمريكيين بسيط وخارق الذكاء. فقد أجبروهم على القتال فى أمكنة وظروف تخالف أسلوبهم فى الحياة ... " .

وقال جيفارا إنه كان راغبا أشد الرغبة فى الذهاب إلى فيتنام . لكنه لم يفعل لأن وجوده هناك قد يسبب لكوبا قدرا كبيرا من المصاعب. واستدرك قائلا : ولكن ربما يكون فى وسعنا أن نخلق فيتنام أخرى ... " ما أشد حاجتنا إلى عدد من تلك الفيتنمات ! " .

والواقع أن جيفارا كثيراً ما عاد إلى ترديد موضوع خلق فيتنامات أخريات. وكان يقول : " أريد أن أفعل شيئاً يهز النظام العالمي لأننى لا أعتبر ما لدينا الآن سلاماً . إنه ليس بسلام وليس علينا أن ندافع عنه ونصونه.. إن ما لدينا هو سلام بأى ثمن . سلام رتبته الحلول الوسط بين الدول الكبرى . وإذا ما قبلنا بالسلام بأى ثمن فإننا نكون قد قبلنا فى الحقيقة حرباً مستمرة، حتى ولو كانت هذه الحرب خفية " .

-----

وسأل جيفارا الرئيس عبد الناصر عن ظاهرة الانقلابات العسكرية فى أفريقيا وعماً إذا كان من شأن مثل تلك الانقلابات أن تجهض العملية الثورية. وأجابه عبد الناصر بأنه يجرى- وفق تحليله- إجهاض العملية الثورية فى أفريقيا على يد الاستعمار الجديد فى غمرة من تحول الإمبرياليين من الاستعمار القديم إلى الاستعمار الجديد، مصطنعين فى ذلك القلائل ، مدبرين الانقلابات ، سالبين شعارات الثورة ، خادعين الناس، مضللهم على طول الخط .

وفى آخر اجتماع بينهما أبلغ جيفارا الرئيس عبد الناصر أنه لا يظن أنه سيبقى فى كوبا . وقال إنه لم يقرر بعد أين سيذهب لكن الشيء الوحيد الذى ينتظره هو أن يقرر " أين يعثر على مكان يكافح فيه من أجل الثورة العالمية ويقبل تحدى الموت " .

وسأله عبد الناصر: " لماذا تتحدث دائماً عن الموت ؟ إنك شاب. إن علينا أن نموت من أجل الثورة إذا كان ذلك ضرورياً، ولكن من الأفضل بكثير أن نعيش من أجلها "

لكن جيفارا كان أدرى بقدره .

ذلك أنه كان قد بلغ من خيبة الأمل فى حياته ومن خيبة الأمل فى أحلامه ما جعل أمنية الموت تستبد به. لم يكن راغباً فى إدارة المصانع والتعامل مع الفنيين والبيروقراطيين . كان يريد أن يقاتل ، كان يريد أن يواجه الموت فى شجاعة وأن يقف وجهاً لوجه مع الموت ويحرق فى نظره !

وقد تأثر عبد الناصر تأثراً بالغاً بالرسالة التى وجهها جيفارا إلى كاسترو عندما ذهب إلى مغامرته الأخيرة فى بوليفيا. فقد كانت تحتوى على الكثير مما تحدثنا عنه فى حوارهما الطويل. وفى تلك الرسالة قال جيفارا:

" إما أن ينتصر الإنسان أو أن يموت. ولقد قضى الكثيرون من رفاقنا نحبهم فى الطريق إلى النصر. أما الآن فقد أصبح كل شيء أقل دراماتيكية، إننى أشعر بأننى أنجزت ذلك الجزء من عملى الذى كان يربطنى بالثورة الكوبية.

إن بلاداً أخرى فى هذا العالم تحتاج إلى جهودى . وبعد فإني أستطيع القيام بما لا أستطيعه أنت بسبب مسئولياتك فى قيادة كوبا. أجل لقد حان وقت الرحيل والافتراق . وأريدك أن تعرف أننى أرحل بمزيج من الغبطة والألم . فإذا جاءت ساعتى تحت سماء أخرى فإنك والشعب الكوبى ستكونان فى خاطري قبل أن ألفظ نفسى الأخير . النصر أو الثورة أو الموت ... "

وهكذا انطلق جيفارا يحمل الثورة إلى بوليفيا . لكنه وجد هناك ما كان عبد الناصر قد حذر منه . لم تكن هناك قاعدة ثورية . لقد جاء بالشرارة ولكن البارود لم يكن جاهزا للتفجير بعد . وأخفق جيفارا . ثم تعرض للخيانة... ثم التقى بالموت ... وكان شجاعاً في لقائه مع الموت ... ولم يهرب وإنما ذهب !

\*\*\*\*